ثروة النفس من اهالي اسوج ١٢٦ جنيهاً مصرياً
" " " ايطاليا ٩٦، " "
" " " النمسا ٩٥، " "

اما الولايات المتحدة الاميركية وثروتها اعظم ثروات الامم فلا يصيب النفس من سكانها سوى ٢٠٨ جنيهات لكثرة عددهم

السُّسيولوجيا اي علم الاجتماع الانساني

ملخصة من كتب الفيلسوف هربرت سبنسر بقلم اسيم افندي برباري

(تابع ما قبلهُ)

نتقدم القول ان اول الاسباب ٱلَّتي تجعل درس هٰذا العلم صعباً هي قلة التواريخ الصادقة التي يعتمد عليها في البحث عن احوال الشعوب الغابرة والحاضرة ايضاً . ولبيان المراد من ذلك نقول ان خطأ التاريخ ناتج إمَّا عن اهمال المؤرخ او عن شدة غيرته او عن اعتقاد راسخ في ذهنهِ او عن اهتمامهِ بمصلحتهِ الخصوصيَّة او عن عدم تمييزهِ بين الحقائق او عن تشتت مواد التاريخ في امكنتها وازمنتها بحيث لا يتيسر عليهِ جمعها فيكون حكمهُ فيها ناقصاً

اما التواريخ ٱلَّتي شَمَلها الخطأُ بسبب اهمال الرواة فكثيرة جدًّا حتى ان جميع التواريخ القديمة وجانباً كبيراً من التواريخ الحديثة داخلٌ في هٰذا الحدّ . وكل من تصفح تاريخ هيرودوتس وغيرهِ من التواريخ القديمة رآها مشحونة بالخرافات التي كان المؤرخون ينقلونها من غير تمحيص . ولا عجب اذا حدث ذلك في الايام الغابرة حينما كانت قوة الاعتقاد شديدة وقوة النقد والتمحيص مفقودة تماماً ولكن العجب من حدوث ما يشبههُ في هٰذه الايام ايام البحث والتدقيق . مثال ذلك ان السياح جابوا بلاد زيلاندا الجديدة حديثاً فقال بعضهم ان اهاليها "اذكياء وفساد وذوو شجاعة" وقال غيرهم انهم "ضعفاء ولطفاء وجبناء" وقد اتى كلٌّ من الفريقين بادلة تثبت رأيهُ وتركوا القراء حيارى بين هذين القولين مع ان البخار والكهربائية قد قرَّبا تلك البلاد من اوربا والناس تتردَّد عليها دواماً . فاذا كان وصف المؤرخين للمسائل المادية البسيطة عرضة للخطاء فكم بالحري اذا ارادوا وصف الامور الاجتماعية والتاريخية الكثيرة التعقيد

واذا تأثر الانسان من امر واهتمَّ بهِ اهتماماً شديداً رأى ذلك الامر كبيراً جدًّا .

فاذا أُصيب بالفرج ظن اكثر الناس عرجاً واذا بلي بعسر الهضم حسب هذا الداء شائعاً بين الناس واذا شبَّ ولده ونشأ عن عمل له استعظم الصعوبات التي تحول دون ذلك وظن انها اعظم كثيراً مما كانت في حداثته عند ما اختار ابوه له عملاً وان الراحة والشيخة تزيدان عاماً فعاماً

وهذا التأثير الذي يطرأ على الناس في احوالهم الشخصية يطرأ عليهم ايضاً في المسائل الاجتماعية واوضح مثال لذلك ما نراه في جمعيات الامتناع عن المسكرات في انكلترا فقد ملأ صراخها الخافقين حتى خُيِّل للناس ان المسكر قد استحل امره وتفاقم شره وانه اذا دام الحال على هذا المنوال انقرض السكان في بضعة اعوام . والحقيقة التي لا ريب فيها ان السكر كان عاماً بين جميع طبقات الناس في انكلترا قبل هذه الجمعيات وكان الجنود قادوة فيها فكان الناس في الاعياد والاحتفالات يفرطون في الشراب حتى يتوسدوا التراب فتحملهم الخدم الى امرتهم وكانت قداح المسكرات مصنوعة بحيث لا يمكن وضعها على المائدة وفيها شيء ما لم يهرق ما فيها فكان الشارب يضطر ان يشربها كلها . ثم حدث انقلاب عظيم وفار السكر بين الطبقتين العليا والوسطى وانتبه الجمهور لاضرارهِ فانشأوا جمعيات للامتناع ثم تطرفوا فانشأوا جمعيات الامتناع وكانت مساعيهم بنتائج حسنة جداً ولكنهم ما زالوا يقولون بازدياد هذه الآفة ويطلبون من الحكومة منعها بقوانين ولوائح صارمة . ومثل ذلك مسألة التعليم العمومي في انكلترا فمثلاً نجد كانت معرفة القراءة قبلاً محصورة في أبناء قليلين ثم انتشرت المدارس وساعدتها الحكومة وبعد ان كانت ميزانية المعارف ٣٠ الف جنيه فقط صارت اليوم نحو ثلاثة ملايين جنيه ومع ذلك لا يزال كثيرون يعتقدون ان بالعسف يبلغ ادنى درجات الجهل اذا لم تزد مساعدة الحكومة له من هذا القبيل . وبديهي ان ما ذكر من التغيير في هذه المسائل ناتج عن تغيُّر في قوانا العقلية كالشاب الذي يعود الى سقط رأسهِ فيرى حقيراً ما كان يتوهمهُ قبلاً عظيماً جداً حينما كان غضاً سريع التأثر مع ان كل شيء باقٍ على حالهِ

واعتقاد الانسان وآراؤهُ التي تملك منهُ تجعلهُ ينظر الى الامور بمناظير الخصوصي فيختلف لونها بحسب لون المنظار فرؤية كالناس كثيرين ينظر كلٌّ منهم الى القمر فيرى قرص وجه محبوبهِ والقمر واحد لا يتغير

واهتم الانكليز مرة بنشر النواميس الصحية فخطب فيهم احد الاطباء المشهورين عن اهمية اتخاذ الاحتياطات الصحية الواقية واستشهد على صحة رأيهِ بجدول وضعهُ للمقابلة بين كثرة

الوفيات في لندن وقلتها في بلدة اخرى في رساتيق انكلترا الصحية ونسب قلة الوفيات في البلدة الثانية الى التدابير الصحية التي اتخذت فيها وهو زعم فاسد وقد سها عن ذلك الخطيب ان الحامض الكربونيك الخارج من رئات الملايين الساكنين في مدينة لندن ومن غيرانهم المستمرة نهارًا وليلاً يفسد هواءها عدا عن ان معظم اهاليها يشتغلون اشغالاً عقلية تستلزم الجلوس بخلاف اهالي مدن الجبال الذين يتمتعون بالهواء النقي واشغالهم كلها جسدية تستلزم الحركة خارج المنازل فتجود صحتهم وتقل وفياتهم

وللمصالح الشخصية فعل عظيم في قلب الحقائق وهذه حقيقة ثابتة نراها كل يوم ونشعر بها كل ساعة . فاذا قرأنا كتابات حزب من الاحزاب السياسية رأيناها كلها ذمًّا وقدحًا في الحزب الآخر حتى قد لا تترك له حسنة واحدة مع ان حسناته ربما فاقت على سيآته وما ذلك الاَّ لان مصلحة ذلك الحزب تقتضي اسقاط نفوذ الحزب الآخر . فاذا اراد مؤرخ ان يكتب تاريخ بلاد ما كتبته احزابها السياسية تعذر عليه تقرير حقيقة واحدة . وقس على ذلك المشورات التي ينشرها البعض قصد تأليف الشركات التجارية فيتوهم القارئ لاول وهلة ان الغرض فيها يصير عشرة في برهة وجيزة

ومن المصاعب في تقرير المسائل الاجتماعية ان الانسان يستنتج بعض النتائج من امور مشاهدة ثم يحسب تلك النتائج امورًا مقررة . مثال ذلك ان بعضهم نشر جدولاً قابل فيه بين عدد الوفيات من المتزوجين وعددهم من العزب في بلدان مختلفة وخلاصته ان عدد المتوفين بين الخامسة والعشرين والثلاثين هو ٤ في الالف من المتزوجين و١٠/٤ من العزب و٢٢ من الارامل . واستنتج من ذلك ان الزواج يقلل الوفيات في جميع درجات الحياة وخصوصًا في الرجال

واذا قدرنا الاحوال التي تسهل الزواج او تعيقه رأينا ان هذا الاستدلال فاسد فان الزواج يتوقف في اغلب الاحيان على توفر وسائط المعيشة والذين تتوفر لهم هذه الوسائط هم غالبًا اصحاء العقول والاجسام ومن ذوي الآراء الصائبة . لان قوي البنية يشتغل نهارًا وليلاً بجد ونشاط وهذا ما لا طاقة للسقيم عليه . واقوياء العقول يرقون اعلى المناصب واما البلداء فيسقون وراء القوت الضروري وقلما ينالونه . وذوو الاراء الصائبة يضحون اللذة الحاضرة لاجل الخير المقبل اما الجهلاء فيتمتعون بملاذ اليوم ولا يدخرون شيئًا للغد . وبديهي ان الذين تتوفر لهم وسائط المعيشة يعمرون طويلاً سواء تزوجوا او لم يتزوجوا وان الاسباب التي تمنع غيرهم عن الزواج هي نفس الاسباب التي تقصر اعمارهم وتؤدي بهم الى الموت الباكر

وعدا عما تقدم فان الرجل لا يميل الى الزواج واخلاف النسل اذا لم تتوفر فيه القوى

الجيوية . والمرأة لا ترضى بالاقتران ببعل طويل او غير تام النمو عقلاً وجسماً فضلاً عن اعتبار الاحوال التي تسهل الزواج او ميل الرجل والمرأة اليه رأينا ان الزواج لا يتم الا متى وجدت الشروط اللازمة لاطالة العمر

وانشئت مواد التاريخ في المكان مما يزيد الصعوبات في تدوينها صحيحة . فاذا كان يستحيل عمل خريطة للبلاد ما لم ينفع فيها جميع جبالها وانهارها وبنايها وتركيب طبقاتها وصخورها ومدنها الخ رغماً عن كثرة الخرائط التي رسمتها البعثات العلمية والسياسية فكم بالحري يصعب علينا وصف اخلاق امة كبيرة وعلومها وآدابها وتجارتها ولا علم لنا عنها سوى ما نقرأه في التواريخ والكتب المشحونة بالاغاليط

وانشئت مواد التاريخ في الزمان يزيد درسها صعوبة . فالذين يرون ان الانسان هو ابن العصر الحاضر وقوانينه وعوائده يشعر منافعها لا يرون صعوبة في درس الحوادث التاريخية والحكم عليها . اما الذين يعتقدون ان ما نراه اليوم هو نتيجة قرائن عملت كثيراً منذ مئات من السنين يرون كل حكم لم تعتبر فيه هذه القرائن ناقصاً لا يعول عليه

وافضل مثال لذلك ما نراه في حالة الفرد من بني البشر . فكثيرٌ من الاهلين يعطون اولادهن ما يطلبنه خوفاً من بكائهم غير عالمات ان ذلك يقوي فيهم العناد حتى اذا شبوا استحال نزعه منهم فيكونون مصيبة على والديهم والذين حولهم . وهذا شأن كثيرين من المشرعين الذين يسنون القوانين لتلافي شر حاضر فتكون نتيجتها شراً آخر مستقبلاً اعظم واطول عمراً من الاول

والسبب الثاني الذي يجعل علم الاجتماع الانساني صعب المنال قائم في المؤرخ نفسه فهو اما ناتج عن قواه العقلية او عن انفعالاته النفسانية . والاول منهما مسبب عن العجز في ادراك افكار الغير كما هي فيقيس المرء غيره بنفسه فاذا رأى آراء غيره مثل آرائه استحسنها والا استهجنها . ولذا يضحك المتمدن على المتوحشين الذين يعتقدون انهم ولدوا من الاوز . وليب المطر يصاق الآلهة على الارض وان الجزيرة التي يقطنونها كانت قبلاً في قعر البحر فرفعها احد الآلهة بصارته . ولا يدري هذا الضاحك انه لو جرد عن القوى العقلية التي ورثها عن اسلافه ونزعت منه معرفة تاريخ الامم الماضية وحصر اختباره في جزيرة صغيرة بعيدة عن العالم المتمدن لما كانت افكاره وآراؤه اقرب الى المعقول من آراء اولئك المتوحشين

ثم ان درس الاجتماع الانساني يقتضي النظر الى الامور من جهاتها كلها واعتبار كل الفواعل والمؤثرات التي طرأت عليها والذين خصهم الله بهذا النظر قليلون جداً . فلو أريت

ولداً صورة منظر طبيعي لا تتظرف منهُ صورة حيوان يرعى او ولداً يلعب وسهاعنهُ ان جمال تلك الصورة يتوقف على جمال مناظرها الطبيعيَّة كالجبال والاودية والمياه وامتزاجها معاً بحيث ان الذي يؤثر فيها في ذهن الرائي ليس صورة الجبل او البقرة وحدها بل صورة المناظر كلها مجتمعاً بعضها مع بعض . واغلب الناس لا ينظرون في المسائل الاجتماعيَّة الاَّ من جهة واحدة كما يتضح من المثال الآتي

اذا رأى ميكانيكيٌّ احدى مطابع الجرائد الكبيرة في اميركا عجب من بنائها ودقة صناعتها واثنى على صانعها بما هو اهلهُ وعاد مسروراً ظانًّا انهُ ادرك سرها . والواقع انهُ ادرك شيئاً وغابت عنهُ اشياء فان لكل جزء من تلك الآلة تاريخاً طويلاً ينتهي الى اختراع آلة الطبع في القرون الوسطى . ودقة تركيبها يتوقف على اتقان المعامل التي صنعت فيها ولكل من الآلات التي في المعامل تاريخ طويل ايضاً . ثم انهُ لم يكن يتيسر وجود المعامل لولا وجود معادن الحديد والفحم في اميركا وعدا ذلك فان علم الميكانيكيات والكيمياء والفلسفة الطبيعيَّة والهندسة اشتركت كلها معاً في صهر المعادن وصبّ الآلات ولولا امانة الصناع ومهارة رؤسائهم ما امكن الوصول الى عمل آلة متقنة والامانة والمهارة ليستا غريزيتين في الانسان بل هما نتيجة تمارين مع بني نوعهِ مدة الوف من السنين . واذا تعمقنا قليلاً في بحثنا رأينا ان عمل هذه الآلة لم يكن بلا داعٍ بل ان لهُ سبباً مهمًّا جدًّا وهو اقبال القراء على شراء الجرائد حتى اضطر اصحابها ان يطلبوا من المعامل عمل مطبعة تطبع عدة آلاف نسخة في الساعة . وبين هؤلاء القراء رجال السياسة الذين ينتظرون بفروغ صبر اخبار جلسات مجلس الشورى والتجار الذين يهمهم الوقوف على اسعار بورصات العالم والسيدات اللواتي يهتممن بمعرفة الازياء الجديدة . وانشغاف هؤلاء القراء كلهم بتلقي الاخبار مسببٌ عن درجة التمدن العالية التي وصل الناس اليها بعد ان مضت عليهم الوف من السنين وهم سائرون نحوها سيراً حثيثاً . وهكذا نرى ان اسباباً لا تعد ولا تحصى قد اشتغلت معاً آلافاً من السنين حتى انتجت آلة الطبع هذه التي قد يظنها الانسان اختراعاً بسيطاً لا علاقة لهُ بما حولهُ من الموجودات

اما تأثير الانفعالات النفسانيَّة في قلب الحقائق فواضح لا يحتاج الى برهان . فالخوف قد يحدو بنا الى اليأس ولو كان النجاح ميسوراً والآمال قد تزين لنا المستحيل فنبني القصور والاهلالي في الهواء . والحب والبغض ذانك كبيران وفعلهما يظهر كل يوم في معاملاتنا واقوالنا وخصوصاً عندما نحكم على اعمال غيرنا . وافضل شاهد على ذلك آراء الناس في الثورة الفرنسوية والبلشفيون الاول . فقد كان اهالي فرنسا قبل الثورة في اقصى دركات الذل

يسامون الخسف من الحكام والاشراف والاكليروس . ويضيق بنا المقام لو اردنا وصف المظالم والمغارم التي قاساها الفرنسويون في تلك الايام حتى قام الشعب كلهُ معاً وخلع غير الملك والاشراف وقتل من قتل منهم وافى الباقين خوفاً من اعادة المظالم الاولى . نعم ان الشعب قد افرط في اقتصاصهِ من اعدائهِ ولكن الطبيعة البشرية تحمل الانسان على ارتكاب الفظائع دفاعاً عن نفسهِ . ثم ظهر مدة الثورة رجل ارقى اعظم المناصب باهليتهِ واستقلاله فكل شيء في سبيل تقدمهِ ومع ذلك اعطاهُ الناس لقب الكبير . فقتل عشرة آلاف من الاشراف مدة الثورة لظلمهم واستبدادهم جعل فرائص العالم الحر تقشعر وترتعد مع اننا نقرأ اخبار حروب نابليون التي اهلك فيها اكثر من مليوني نفس فان رجال الرقي يمرون عليها مرور الكرام كأنها قصة او رواية . وفي حكمنا الجائر ان لا عذر لرؤساء الثورة في تظلم الاشراف دفاعاً عن انفسهم ولكننا نجد كل العذر لنابليون في حروبهِ التي قصدها اشباع طمع الاشراف وتوسيع منفعة اقاربهِ

وهذه الانفعالات النفسانية التي تفعل بصائرنا قد تولدت عن شعور قديم في نفس الانسان هو اعتبار القوة والتحكم بها ولذا ينظر الشعب الى حكومتهِ كأنها قادرة على كل شيء ومعصومة من الغلط و يطلب منها اصلاح احوالهِ المادية والادبية رغماً عن الاختبار المتواصل الذي حقق لهُ ان الحكومة ليست اوفق كثيراً من الشعب وان لا تقدم للامة الاَّ باعتمادها على نفسها . ويظن الانسان ان حاكمهُ مثال العدل والانصاف والحكمة ولو كان نيرون الطاغية . وكم من ملك لقبهُ المؤرخون بالعظيم او الكبير لاعجابهم بانتصاراتهِ ولو انصفوا لسموهُ مساوئهُ لرأوا العالم حقيقة امرهِ

واهم نتائج هذه الانفعالات انها ملأت التواريخ باخبار الملوك ولم تذكر شيئاً عن احوال الشعوب ونظاماتها وكيفية ارتقائها ونحو ذلك من الامور التي تلزم معرفتها لدرس علم العمران . وسيبقى الاعجاب بالسلطات وهيبتها مستولين على العقل البشري طويلاً قبل ان ينتبه الناس لبقية العوامل و يدركوا شأنها

وسيأتي الكلام في الجزء القادم على الاهرام السياسية والدينية والوطنية التي تمنع الانسان عن النظر الى الامور نظراً مجرداً عن الميل والهوى